الآراء اللغوية للزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن سورة البقرة نموذجًا

د. أنس عبد الله محمد أحمد (*)

المقدمة :

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ **[آل عمران:١٠٢]** ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ **[النساء:١]** ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧١) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ **[الأحزاب:٧٠-٧١]**

أما بعد:

فإنّ العلوم المتعلقة بكتاب الله لهي أشرف العلوم، وهو كلام الله تعالى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ **[فصلت:٤٢]**، وشرف العلم تابع لشرف المعلوم.

(*) قسم التفسير والحديث – كلية الشريعة – جامعة الكويت.

وعلوم التفسير تعين على فهم كلام الله تعالى ومعرفة مراده، فكلما كان الإنسان متعمقًا في العلوم عمومًا فإنها تعينه على فهم كلام الله تعالى.

ومن العلماء الذين جمعوا بين العلوم والفنون الإمام محمد بن بهادر الزركشي الشافعي[1] : فقد ألّف في فنون شتّى.

وقد منَّ اللهُ علَيَّ بقراءة هذا الكتاب المبارك فوجدتُ فيه آيات كثيرة فسّرها في ثنايا الكتاب، فاستخرجتها، وهي كثيرة، وتتعلق بمواضيع شتى، فأحببت أن أدرس جزءًا مناسبًا منها، وهو ما يتعلق بالمسائل اللغوية، فأخذت ما يتعلق بسورة البقرة –نموذجًا ، ووجدت فيه الكفاية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. أنه متعلق بكتاب الله ، فالتفسير أشرف العلوم؛ والتفسير يحوي جميع العلوم.

٢. عظم كتاب "البرهان" للزركشي، وهو من الأمهات فيما يتعلق بعلوم القرآن، فلفت نظري الكم الهائل من الآيات المفسرة فيه –وخاصة اللغة، سواء كان التفسير قصدًا أو كان ضمن التمثيل على بعض ما يتعلق بعلوم القرآن.

٣. الإمام الزركشي من المعروفين بالعلم، وله مؤلفات كثيرة متميزة ومتنوعة، سواء كانت اعتقادية أو فقهية أو عامة أو لغوية.

٤. ومما تميز به النقل عن العلماء في مختلف الفنون.

منهج البحث:

هو المنهج الوصفي.

واتبعت في ترتيب المادة العلمية الخطوات التالية:

١. جمع الآيات المعنيّة من الكتاب، سواء التي فسّرها هو أو نقل تفسيرها عن أحد من العلماء.

---

(١) وهناك آخر حنبلي، واسمه: محمد بن عبد الله المصري، شمس الدين، توفي سنة:٧٧٢هـ، من مؤلفاته:شرح مختصر الخرقي في الفقه الحنبلي.

٢. ترتيبها حسب ورودها في السورة.
٣. عزو النقل إلى مكانه في كتاب "البرهان".
٤. قد يكون للآية الواحدة أكثر من تعليق، فأجمعها في مكان واحد.
٥. عزو الأقوال حسب المستطاع.
٦. التعليق عليها باختصار لإتمام الفائدة.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين ثم خاتمة.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومنهج البحث وخطَّته.

المبحث الأول: الإمام الزركشي وكتابه البرهان في علوم القرآن، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة مختصرة عن الإمام الزركشي.

المطلب الثاني: منهجه في كتابه البرهان.

المطلب الثالث: مصادره في كتابه البرهان.

المبحث الثاني: مسائل البحث والتعليق عليها.

الخاتمة: وتشتمل على أهم نتائج البحث وتوصياته.

المبحث الأول

الإمام الزركشي وكتابه البرهان في علوم القرآن

المطلب الأول: ترجمة مختصرة عن الإمام الزركشي.

اسمه: محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي الشافعي، بدر الدين، أخذ عن الإسنوي والبلقيني وابن كثير وغيرهم.

وهو تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، شافعي المذهب.

وقد تميز بالعلم في فنون كثيرة، ويظهر هذا جليًا في كتبه، ومنها هذا الكتاب، سواء في صلب موضوع الكتاب وهو علوم القرآن عمومًا، أو الفقه مثلا والحديث وغيرها.

ومن تلاميذه: شمس الدين البرماوي ونجم الدين عمر بن حجي الشافعي ومحمد بن حسن المالكي وغيرهم.

مؤلفاته: تكملة شرح المنهاج للإسنوي، خادم الشرح، الروضة، النكت على البخاري، لقطة العجلان وبلّة الظمآن، وغيرها.

توفي سنة: ٧٩٤هـ في القاهرة، ودُفن بالقرّافة الصغرى- رحمه الله[١].

تنبيه:

هناك عالِم آخر يلقب بالزركشي، لكنه حنبليّ، ويلقب بشمس الدين، وتوفي سنة ٧٧٢هـ.

المطلب الثاني: منهجه في كتابه البرهان.

اتبع – رحمه الله- منهجًا علميًّا رصينًا يقوم على تعريف القارئ بكل فن من فنون القرآن على حدة، وإعطائه فكرة واضحة عن هذا الفن، فكان يؤرخ للفن، ويحصي الكتب التي ألفت فيه، ويشير إلى العلماء الذين تدارسوه، ثم يذكر

---

(١) ينظر: "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني: ٥/ ١٣٤، و"شذرات الذهب في أخبار من ذهب" لابن العماد الحنبلي: ٨/ ٥٧٢.

مسائله، ويبين أقوال العلماء فيه، وينقل آراء علماء التفسير والمحدثين والفقهاء والأصوليين وعلماء العربية وأصحاب الجدل.

بدأ المؤلف بمقدمة تكلم فيها عن فضل القرآن الكريم، ونقل أقوال بعض السلف في فضل هذا العلم؛ لأنه مرتبط بكلام الله تعالى.

ثم ذكر باختصار نشأة علوم القرآن، والسبب الباعث على تأليفه للكتاب، وهو أنه لم ير كتابًا جمع علوم القرآن في مكان واحد.

ثم ذكر أن علوم القرآن كثيرة لا تنحصر، ومعانيه لا تستقصى، فوجبت العناية به قدر الإمكان.

ويتميز البرهان للزركشي بالنقل عن كثير من العلماء، وبخاصة أهل اللغة منهم، وأوّلهم الزمخشري.

ومما تميز به أنه فسّر كثيرًا من مفردات القرآن؛ مثل (ضريع) و(لمغرمون) و(يخرج منهما) وغيرها كثير جدًّا.

اهتمامه بعلم القراءات ودقة العزو في الغالب[1].

تميزه بالتقاسيم في كثير من الأمور[2]، وأقسام النفي[3] وغيرها.

اهتمامه الكبير بعلوم اللغة عمومًا، فكتابه مليء بعلوم اللغة، سواء النحو أو الصرف أو البلاغة ولها النصيب الكبير، أو إيراده الأشعار.

دقة نقله عن غيره وتحقيقاته بعض المسائل والرد على المخالفين.

ثم ذكر فهرس الموضوعات التي سيتناولها، وهي سبعة وأربعون نوعًا.

---

(١) ذكرت أنه الغالب؛ لأنه أحيانًا ينسب لبعضهم بعض القراءات، وهي ليست لهم أو لم تصح عنهم، كنسبته لابن عامر قراءة: (بعد أَمَهٍ)، ولعاصم: (يأسفاه على يوسف) وغيرها. ينظر البرهان: (٣/ ٣٥، ٤١٥)(٤/ ٣٣٦).

(٢) كأقسام التفسير: ٢/ ١٦٤.

(٣) ٢/ ٣٧٨.

المطلب الثالث: مصادره في كتابه البرهان.

بلغت مصادره عمومًا ما يقارب (٣٣٢) مصدرًا، ما يتعلق بالتفسير وعلوم القرآن منها ١٢٠ مصدرًا تقريبًا.

وتقريبًا ١٠٠ مصدر يتعلق باللغة[١].

ومما تميز به الزركشي أمانة النقل في مؤلفاته عمومة، بل صرّح في مقدمة كتابه "البحر المحيط في أصول الفقه" بذلك، فقال: "شافهت كل مسألة من كتابها"[٢].

* *

(١) هذا يؤيد ما ذكرته من اهتمامه بعلوم اللغة عمومة، لذا ذكرته.

(٢) البحر المحيط للزركشي: ١/ ٧.

المبحث الثاني

آراء الزركشي اللغوية

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾[1]

١. **قال الزركشي**[2]: وإنما يقال: خلوت به، لكن ضمَّن خلوا معنى ذهبوا وانصرفوا، وهو معادل لقوله: لقوا. وهذا أَولى من قول من قال: إن (إلى) هنا بمعنى الباء أو بمعنى مع[3]. وقال مكي[4]: إنما لم تأت الباء لأنه يقال: خلوت به، إذا سخرت منه، فأتى ب (إلى) لدفع هذا الوهم.

التضمين: إعطاء الشيء معنى الشيء ويكون في الحروف والأفعال والأسماء[5].

قال ابن هشام: قد يُشربون لفظًا معنى لفظ فيعطونه حكمه، وَيُسمى ذَلِك تضمينًا، وَفَائِدَته أَن تُؤدِّي كلمةٌ مؤدَّى كَلِمَتَيْنِ[6].ويرى البصريون –عمومًا– الأخذ بالتضمين للفعل[7]، خلافًا للكوفيين–عمومًا– الذين يرون التضمين للحرف[8]، لأن

---

(١) سورة البقرة: ١٤.
(٢) البرهان: ٣/ ٣٣٩.
(٣) قال مكي: و"إلى" بمعنى "مع"،كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُم﴾ ، أي مع أموالكم. الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي القيسي: ١/ ١٦٣.
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي القيسي: ١/ ١٦٤. وينظر تفسير الطبري: ١/ ١٩٨.
(٥) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي: ٣/ ١٣٦.
(٦) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ٨٩٧، وبدائع الفوائد لابن القيّم: ٣/ ٧١.
(٧) قال ابن تيمية: والتحقيق ما قاله نحاة البصرة من التضمين، فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمّها إلى نعاجه.مقدمة في أصول التفسير: ١٨. وينظر شرح مقدمة التفسير لابن عثيمين: ٥٩. والبحر المحيط لأبي حيان: ١/ ١١٣.
(٨) قال الطبري: لأن لكل حرف من حُرُوف المعاني وجهًا هو به أولى من غيره، فلا يصلح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها. ولِـ "إلى" في كل موضع دخلت من الكلام حُكْم، وغيرُ جائز سلبُها معانِيَها في أماكنها.تفسير الطبري: ١/ ١٩٩.

بعض الأفراد من المتأخرين خالف الأغلب، فقلتُ عمومًا -كما قال البطليوسي[1].

ولعل قول البصريين هو الأقوى؛ لأن فيه إثراء للمعنى، وكما ذكر ابن هشام بأنّ لفظة واحدة تعطي معنى لفظتين.

فالمعنى على هذا: وإلى هنا على معناها من انتهاء الغاية على معنى تضمين الفعل، أي صرفوا خلاهم إلى شياطينهم[2].

أو: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم، فضمن "خلوا" معنى "انصرفوا"؛ لتعديته ب"إلى"، ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به. ومنهم من قال: "إلى" هنا بمعنى "مع"، والأول أحسن[3].

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[4]

قال الزركشي[5]: وجعل ابن مالك من هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ قال: لأن فعل أمر المخاطب لا يعمل في الظاهر، فهو على معنى: اسكن أنت ولتسكن زوجك؛ لأن شرط المعطوف أن يكون صالحًا لأن يعمل فيه ما عمل في المعطوف عليه، وهذا متعذر هنا؛ لأنه لا يقال: اسكن زوجك.

ذكر ابنُ مالك هذا، حيث قال: فلو كان ما بعد العاطف لا يصلح لمباشرة العامل، ولا هو بمعنى ما يصلح لمباشرته أضمر له عامل مدلول عليه بما قبل

---

(١) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي: ٢/ ٢٦٢.

(٢) البحر المحيط في التفسير: ١/ ١١٣.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٢.

(٤) سورة البقرة: ٣٥.

(٥) البرهان للزركشي: ٣/ ١٢٥.

العاطف، وجعل من عطف الجمل، نحو: (اسكن أنت وزوجك) و(اذهب أنت وربك) فزوجك وربك مرفوعان بـ "ليسكن، وليذهب" مضمرين مدلول عليهما ب"اسكن واذهب"، والمحوج إلى هذا التقدير أن فعل الأمر لا يرفع إلا ضمير المأمور المخاطب(١)، لكنه وإن لم يكن صالحًا لرفع غيره فهو صالح للدلالة على ما يرفعه.ولو كان ما قبل العاطف فعلاً مضارعًا مفتتحًا بالهمزة أو النون لفُعِل بعده من التقدير والإضمار ما فعل بعد الأمر، نحو: (لا نخلفه نحن ولا أنت) فأنت مرفوع بفعل مضمر مدلول عليه ب"نخلفه"، والتقدير: لا تخلفه أنت، لأن نفعل وأفعل لا يرفعان إلا ضميري المتكلم(٢).

وردَّ عليه العلماء ومنهم أبو حيان: وتظافرت نصوص النحويين والمعربين على ما ذكرناه من أن "وزوجك" معطوف على الضمير المستكن في اسكن، ويكون إذ ذاك من عطف المفردات. وزعم بعض الناس أنه لا يجوز إلا أن يكون من عطف الجمل، التقدير: ولتسكن زوجك، وحذف: ولتسكن، لدلالة اسكن عليه، وأتى بنظائر من هذا الباب نحو: لا نخلفه نحن ولا أنت، ونحو: تقوم أنت وزيد،...

وقد أجمع النحويون على جواز: تقوم عائشة وزيد، ولا يمكن لزيد أن يباشر العامل، ولا نعلم خلافًا أن هذا من عطف المفردات(٣).

﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾(٤)

(١) بيان الملازمة أنه لو جعل "زوجك" معطوفًا على فاعل "اسكن" المستتر فيه لكان شريكه في عامله، والأمر بالصيغة لا يرفع ظاهرًا، فلا يعطف على فاعله ظاهر.شرح التصريح على التوضيح: ٢/ ١٨٧.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك: ٣/ ٣٧١.

(٣) البحر المحيط في التفسير: ١/ ٢٥٢.، وينظر الدر المصون للسمين الحلبي: ١/ ٢٧٨.

(٤) سورة البقرة: ٤٨.

قال الزركشي[١]: اعتبر أبو الحسن[٢]في الحذف التدريج حيث أمكن، ولهذا قال في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً﴾، إن أصل الكلام: (يوم لا تجزي فيه)، فحذف حرف الجر فصار تجزيه ثم حذف الضمير فصار تجزي. وهذا ملاطفة في الصناعة، ومذهب سيبويه أنه حذف فيه دفعة واحدة. وقال أبو الفتح في المحتسب[٣]: وقول أبي الحسن أوثق في النفس وآنس من أن يحذف الحرفان معًا في وقت واحد.

أما الطبري فيرى جواز الأمرين، سواء أن يكون المحذوف (فيه) أو الهاء. فقال: وتأويله: "واتقوا يوماً لا تجزي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئًا". وجائز أيضًا أن يكون تأويله: "واتقوا يومًا لا تجزيه نفس عن نفس شيئًا"[٤].

والضمير يعود على اليوم، والمعنى: لا يدفع عنه عذاب ذلك اليوم –بمعنى المفعولية، وعلى الثاني: لا يدفع عنه العذاب في ذلك اليوم –بمعنى الظرفية، والمعنيان متقاربان.

﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ﴾[٥]

قال الزركشي[٦]: المشهور أنه معطوف على جملة محذوفة التقدير: فضرب فانفجرت، ودلَّ "انفجرت" على المحذوف؛ لأنه يعلم من الانفجار أنه قد ضرب.

---

(١) البرهان للزركشي: ٣/ ١١٦.

(٢) الأخفش: هو المعروف بالأخفش الأوسط، واسمه: سعيد بن مسعدة. ينظر سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٢٠٦. وعند إطلاق اسم الأخفش ينصرف إليه.

(٣) والنص من كتاب المحتسب، هو: "وهذا أرفق، والنفس به أبسأ من أن يُعْتَبَطَ الحرفان معًا في وقت واحد". المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: ٢/ ١٦٤.

(٤) تفسير الطبري: ١/ ٢٦. وينظر معاني القرآن للزجّاج: ١/ ١٢٨، وإعراب القرآن للنحّاس: ٥١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

(٦) البرهان للزركشي: ٣/ ١٨٦.

يقدّر هذا الفعل لأنَّ الانفجار مسبّب عن ضرب موسى وليس عن أمره بالضرب.

قال السمين الحلبي: "فانفجرت" الفاءُ عاطفةٌ على محذوفٍ لا بُدَّ منه، تقديرُه: فَضَرَبَ فانفجَرَت[١].

﴿وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُون﴾[٢]

قال الزركشي[٣]: جواب الشرط محذوف[٤]، يدل عليه قوله: "إنا لمهتدون"، أي إن شاء الله اهتدينا.

وقد توسط الشرط هنا[٥] بين جزأي الجملة[٦] بالجزاء؛ لأن التقديم على الشرط فيكون دليل الجواب متقدمًا على الشرط والذي حسن تقديم الشرط عليه[٧] الاهتمام بتعليق الهداية بمشيئة الله تعالى.

قوله تعالى: "**إِن شَاء اللَّهُ**" هذا شرطٌ جوابُه محذوفٌ لدلالةِ "إنْ" وما في حَيِّزها عليه، والتقدير: إن شاء اللهُ هدايتَنا للبقرة اهتدَيْنا، ولكنهم أَخرجُوه في جملةٍ اسميةٍ مؤكَّدة بحرفَيْ تأكيدٍ مبالغةً في طَلَب الهداية، واعترضوا بالشرطِ تيمُّنًا بمشيئةِ الله تعالى[٨].

---

(١) الدر المصون: ١/ ٣٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٠.

(٣) البرهان للزركشي: ٣/ ١٨٥.

(٤) قال النحّاس: وجوابه عند سيبويه الجملة، وعند المبرِّد محذوف. إعراب القرآن للنحاس: ١/ ٦٠. وينظر البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٤١١.

(٥) وهو قوله تعالى: (إن شاء الله).

(٦) الجملة الأولى: وإنا، والجملة الثانية: لمهتدون.

(٧) على الجزء الثاني –وهو الخبر، وهو: (لمهتدون).

(٨) الدر المصون: ١/ ٤٢٧.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ﴾[1]

٧. **قال الزركشي**[2]: هذا خبر في موضع (لا تسفكوا).

خبر في معنى الأمر، وهو نفي في اللفظ نهيٌ في المعنى، كما قيل في الآية السابقة: ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ﴾[3].والمقصود المبالغة في النهي.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4]

قال الزركشي[5]: ومنه حذف ألف "ما" الاستفهامية مع حرف الجر؛ للفرق بين الاستفهامية والخبرية[6].

هذا هو الأشهر، والقليل هو إثباتها –وهو الأصل، كما ورد في قراءة عكرمة: عما يتساءلون[7].

ومن إثبات الألف قوله:على ما قام يشتمني لئيم ... كخنزير تمرغ في رماد[8]

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[9]

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٤.

(٢) البرهان للزركشي: ٣/ ٣٤٨.

(٣) ينظر "التحرير والتنوير" لابن عاشور: ١/ ٥٨٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩١.

(٥) البرهان للزركشي: ٣/ ٢١٣.

(٦) أمالي ابن الشجري: ٢/ ٥٤٦، إعراب القرآن للنحاس: ١/ ٦٨، وإعراب القرآن وبيانه لدرويش: ١/ ١٤٧.

(٧) البحر المحيط لأبي حيان: ١٠/ ٣٨٣، قواعد الإملاء لعبد السلام هارون: ٤٤.

(٨) البحر المحيط لأبي حيان: ١٠/ ٣٨٣.

(٩) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

قال الزركشي[1]: ويجوز حذفه مع حرف العطف، كقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، أي: فأفطر فعدَّة.

في الكلام حذف، والسياق يقتضيه، ودلالة الاقتضاء هي التي يدل عليه اللفظ، ولا يكون منطوقًا به، ولكن يكون من ضرورة اللفظ[2].وحُذف هنا جواب الشرط، وتقديره: "فأفطر"، ونظيره: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾. أي: فضرب فانفلق[3].وهذه الفاء العاطفة على الجواب المحذوف هي الفاء الفصيحة[4].فاكتفى بالمسبب الذي هو قوله فعدة من أيام أخر عن السبب الذي هو الإفطار[5].

وفي هذه المسألة ردٌّ على الظاهرية[6] الذين أوجبوا الفطر على كل مريض أو مسافر عملا بظاهر الآية، دون التفات إلى دلالة الاقتضاء على عادتهم في اعتبار الظاهر المنطوق.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[7]

---

(١) البرهان للزركشي: ٣/ ١٥٨.
(٢) المستصفى: ٢٦٣، والفصول المفيدة في الواو المزيدة للعلائي: ١٤٩.
(٣) الدر المصون للسمين الحلبي: ٢/ ٢٧٠.
(٤) الكشكول للعاملي الهمذاني: ١/ ٢٨٨.
(٥) لسان العرب لابن منظور: ٣/ ٢٨١.
(٦) ولهذا ذهب داود الظاهري إلى الأخذ بظاهر الآية، ولم ينظر إلى حذف الشرط؛ فأوجب القضاء على المريض والمسافر، سواء أفطر أم لم يفطر.المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير: ٢/ ٩٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

قال الزركشي[١]: ومن التضمين[٢]قوله تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾؛لأنه لا يقال: رفثت إلى المرأة[٣]، لكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك.

قال أبو عبيدة مَعْمَر: أي الإفضاء إلى نسائكم، أي النكاح[٤]. فَضَمَّن الرفث معنى الإفضاء فعُدِّي ب"إلى" في قوله: الرفث إلى نسائكم[٥].وعبّر عن الجماع بالرفث ليشمل مقدماته[٦].

وتقدير الكلام: أُحِلّ لَكُمْ ليلةَ الصّيام الرَّفَثُ بالحديث مع نسائكم مُقَدِّمَةً مُنَاسِبَةً يكونُ بَعْدَها الإفضاء إليهن وجماعُهُنَّ، والله بهذا يُعَلِّم الأزواج أدب المعاشرة باستخدام المقدمات قبل الإفضاء والمعاشرة الزوجيّة[٧].

أو: أُحِلَّ لكم الرفث مُفْضِين به إلى نسائكم. فأغنى هذا الأسلوب التضميني عن التعبير بجُمْلَتين، أو عن التصريح بالحال[٨].

﴿**الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ**﴾

---

(١) البرهان للزركشي: ٣/ ٣٣٩.

(٢) التضمين: إشراب لفظ معنى لفظ آخر فيأخذ حكمه، أو كلمة تؤدي مؤدَّى كلمتين. ينظر الخصائص لابن جني: ٢/ ٣١٠، وتحفة الأقران للبيري الأندلسي: ١٢.

(٣) وإنما تقول: رفث بها أو معها. الخصائص لابن جني: ٢/ ٣١٠.

(٤) مجاز القرآن لأبي عُبيدة: ١/ ٦٧.

(٥) البحر المحيط في التفسير لأبي حيّان: ١/ ٩٤.

(٦) مقاييس اللغة لابن فارس: ٢/ ٤٢١.

(٧) البلاغة العربية: ٢/ ٥٢.

(٨) البلاغة العربية: ٢/ ٣٠٩.

قال الزركشي(١): إطلاق لفظ التثنية والمراد الجمع.... وجعل منه بعضهم قوله تعالى:﴿**الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ**﴾.

ولم يرد بالمرتين التثنية ولكن التكرير، كقوله: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي كرّة بعد كرّة(٢).

ولكن هذا خلاف الأصل، فالأصل في التثنية أنها للتثنية لا التكرار، ولا ينقل عن هذا الأصل إلا بدليل.

ولذلك جاء بعد:فإن طلقها أي: فإن سرحها الثالثة(٣).

وتحصل من هذا الكلام أن قوله تعالى: الطلاق مرتان فيه قولان للسلف(٤): أحدهما: أنه بيان لعدد الطلاق الذي للزوج أن يرتجع منه دون تجديد مهر وولي.

والثاني: أنه تعريف سنة الطلاق، أي: من طلق اثنتين فليتق الله في الثالثة، فإما تركها غير مظلومة شيئًا من حقها، وإما إمساكها محسنا عشرتها.

﴿**لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا**﴾

قال الزركشي(٥): هذا خبر، وتأويله نهي – على قراءة الرفع.

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو: ﴿**لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا**﴾ بِالرَّفْع على الْخَبَر، فهو خبر بِمَعْنى النَّهْي، وهذا مثل:"والمطلقات يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ"،وَقَرَأَ الْبَاقُونَ:"لَا تضارَّ"

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/ ٨.

(٢) الكشاف للزمخشري: ١/ ٢٧٣.

(٣) البحر المحيط لأبي حيّان: ٢/ ٤٦٥.

(٤) ينظر تفسير الطبري: ٤/ ٥٣٨.

(٥) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٤٧.

بِفَتْح الرَّاء على النَّهْي، وحجتهم قِرَاءَة ابْن مَسْعُود وَابْن عَبَّاس، قَرَأَ ذَلِك:"لَا تضارِرْ" براءين فَدلَّ ذَلِك على أَنه نهي مَحْض[1].

﴿فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾

قال الزركشي[2]: فقوله: "ثم أحياهم"معطوف على فعل محذوف تقديره: "فماتوا" ثم أحياهم[3]، ولا يصح عطف قوله: "ثم أحياهم" على قوله: "موتوا"؛ لأنه أمر، وفعل الأمر لا يعطف على الماضي.

شروط عطف الفعل على الفعل أن يتحدا زمانًا – يعني في المضيّ والاستقبال، فلا يعطف الماضي ولا الحال على المستقبل، ولا العكس، لذا يجب التقدير بفعل مناسب، وهو: فماتوا[4]، حتى يكون المعطوف والمعطوف عليه كليهما فعل ماض. وقيل: معنى الأمر هنا الخبر؛ لأن قوله: فقال لهم الله موتوا، أي فأماتهم[5]، فكان العطف على المعنى[6].

﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾

قال الزركشي[7]: فإن ﴿أَضْعَافًا﴾ جمع قلة، فكيف جاء بعد كثرة!. والجواب أن جمع القلة يستعمل مرادًا به الكثرة وهذا منه.

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ١٣٦.
(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢٠٤.
(٣) إعراب القرآن وبيانه: ١/ ٣٦١.
(٤) وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره، وهذا ما يسمى في علم البلاغة الإيجاز بالحذف. ينظر الجدول في إعراب القرآن: ٢/ ٥١٧.
(٥) قال الزمخشري: فإن قلت: ما معنى قوله فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا؟ قلت:معناه فأماتهم، وإنما جيء به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر اللَّه ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقف. الكشاف للزمخشري: ١/ ٢٩٠.
(٦) التبيان في إعراب القرآن للعكبري: ١/ ١٩٣.
(٧) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٣٥٧.

وهذا ذكره أهل اللغة، من أنه قد يأتي جمع القلة مرادًا به الكثرة لقرينة، قال ابن مالك في ألفيّته: أفعلة أفعل ثم فعله ... ثمت أفعال جموع قله وبعض ذي بكثرة وضعًا يفي...كأرجلٍ والعكس جاء كالصفي.

قال ابن عقيل: ويستعمل كل منهما في موضع الآخر مجازاً[١].

﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾[٢]

قال الزركشي[٣]: فإن الظاهر عود الضمير إلى الإبداء[٤]، بدليل قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فذكَّر الضمير العائد على الإخفاء، ولو قصد الصدقات لقال: "فهي"[٥]، وإنما أنَّث "هي" والذي عاد إليهم ذكَّرَ على حذف مضاف، أي: وإبداؤها نعم ما هي، كقوله: القرية اسألها.

فالإبداء هو: المخصوص بالمدح إلّا أنّ المضاف حذف، وأقيم المضاف إليه الذي هو ضمير الصدقات مقامه، فالمخصوص بالمدح هو الإبداء بالصدقات لا الصدقات يدلّك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، أي: الإخفاء خير لكم، فكما أن هو ضمير الإخفاء، وليس بالصّدقات، كذلك ينبغي أن يكون ضمير الإبداء مرادًا لا الصدقات[٦].

الضمير في قوله: هي، يحتمل أن يكون عائدًا إلى الصدقات، ويحتمل أن يكون على الإبداء، وهذا هو الظاهر، بدليل قوله: "وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ٤/ ١١٤.
(٢) سورة البقرة: ٢٧١.
(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/ ٣٦٧.
(٤) قال ابن عطية: ثناء على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء. المحرر الوجيزلابن عطية: ١/ ٣٦٥.
(٥) قال ابن عطية: أي الإخفاء خير، فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات، فكذلك أولا الفاعل هو الإبداء. المحرر الوجيز لابن عطية: ١/ ٣٦٦.
(٦) الحجة للقراء السبعة للفارسي: ٢/ ٣٩٩.

خير لكم"، فذكّر الضمير العائد على الإخفاء. ولو قصد الصدقات لقال: فهي. فلئن قيل لِم أنَّث والذي عاد عليه مذكر؟ فالجواب: أن هذا على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، كقولك: القرية اسألها، فلما حذفت المضاف، بقي المضاف إليه على حالة، والتقدير: إبداؤها[1].

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾

قال الزركشي[2]:ومنه قوله تعالى: ﴿أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾وفي موضع آخر ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَاتٍ﴾فالمعدود واحد، وقد اختلف تفسيره فالأول جاء بصيغة جمع الكثرة والثاني بجمع القلة، وقد قيل في توجيهه: إن آية البقرة سيقت في بيان المضاعفة والزيادة فناسب صيغة جمع الكثرة، وآية يوسف لُحِظ فيها وهو قليل فأتى بجمع القلة ليصدق اللفظ المعنى[3].

هذا أحد الأقوال، وقيل: إن سنبلة فيها مئة حبة مع ستٍّ مثيلات لها؛ لتبدو للناظر كثيرة، فناسب معه التعبير عنها بجمع الكثرة وهو سنابل.

وأما موضع سورة يوسف فتوجيهه أنه لما سبق بجمع صحيح وهو قوله:"سبع بقرات" جاز جمعه جمعًا صحيحًا لأجل المجاورة والمشاكلة[4].

---

(١) أمالي ابن الحاجب: ١/ ١٢٦، وينظر: البحر المحيط في التفسير: ٢/ ٦٨٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٤/ ٢٢.

(٣) طريق الهجرتين لابن القيم: ٣٦٤.

(٤) وقيل: أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات فلا طريق هنا للحَظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئى وهو قليل لأن ما دون العشرة قليل فَلَحَظَ فى آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد.ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ١/ ٧٠.

الخاتمة

وفيها أهم نتائج البحث، والتي منها:

١. أن كتاب "البرهان" للزركشي من أهم وأوسع كتب علوم القرآن، وخاصة إلى ما قبل عصر الإمام السيوطي رحمهما الله.

٢. ذكر الزركشي في كتابه أنواعًا كثيرة من علوم القرآن.

٣. تميز هذا الكتاب بالفوائد اللغوية خاصة، وأخصُّ منها علم البلاغة، بل تدل وجود هذه المسائل على تعمّق الإمام الزركشي في اللغة، وكان يتعرض للمسائل الدقيقة.

٤. كان ينقل الخلاف عن العلماء والردود بينهم. وقليلا ما يرجّح.

فهرس المصادر والمراجع

١. إعراب القرآن للنحّاس، ت: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط١: ١٤٢١هـ.

٢. الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، للبطليوسي، ت: مصطفى السقا – الدكتور حامد عبد المجيد، دار الكتب المصرية، (١٩٩٦م).

٣. أمالي ابن الحاجب، لابن الحاجب، ت: فخر قدارة، دار عمار، (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).

٤. البحر المحيط في التفسير لأبي حيان، ت: صدقي جميل، دار الفكر، (١٤٢٠هـ).

٥. البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، (١٣٧٦هـ-١٩٥٧م).

٦. البلاغة العربية لعبد الرحمن حبنّكة، دار القلم، (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).

٧. التبيان في إعراب القرآن للعكبري، ت: علي البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي.

٨. تحفة الأقران فيما قرئ بالتثليث من حروف القرآن للبيري، كنوز أشبيليا، (١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م).

٩. تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد شاكر، (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

١٠. الجدول في إعراب القرآن محمود صافي، دار الرشيد، ط٤ (١٤١٨هـ).

١١. حجة القراءات لابن زنجلة، ت: سعيد الأفغاني، دار الرسالة.

١٢. الحجة للقراء السبعة لأبي علي الفارسي، ت: بدر الدين قهوجي بشير جويجابي، دار المأمون، ط٢ (١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

١٣. الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤.

١٤. الدر المصون للسمين الحلبي، ت: أحمد الخراط، دار القلم.
١٥. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، ت: محمد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط٢ (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م).
١٦. سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٣ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).
١٧. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
١٨. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت: محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، ط ٢٠ (١٤٠٠هـ-٢٠٠٠م).
١٩. شرح التصريح على التوضيح للأزهري، دار الكتب العلمية، ط١ (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).
٢٠. طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم، دار السلفية/ القاهرة، ط٢ (١٣٩٤هـ).
٢١. الفصول المفيدة في الواو المزيدة للعلائي، ت: حسن الشاعر، دار البشير، ط١ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
٢٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، دار الكتاب العربي، ط٣ (١٤٠٧هـ).
٢٣. الكشكول للعاملي الهمذاني، ت: محمد النمري، دار الكتب العلمية، ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٨م).
٢٤. لسان العرب لابن منظور، دار صادر، ط٣ (١٤١٤م).
٢٥. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت: محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (١٤٢٠هـ).
٢٦. مجاز القرآن لأبي عُبيدة، ت: محمد فواد سزگين، مكتبة الخانجي، (١٣٨١هـ).

٢٧. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني، ط١ (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).
٢٨. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ت: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، (١٤٢٢هـ).
٢٩. المستصفى لأبي حامد الغزالي، ت: محمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، ط١ (١٤١٣هـ-١٩٩٣م).
٣٠. معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ت: عبد الجليل شلبي، دار عالم الكتب، ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
٣١. مقاييس اللغة لابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).
٣٢. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، ت: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية.

* * *